د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

**السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته**

**جوابًا على السؤال حول مطابقة رواية البخاري عن أبي هريرة لما هو معلوم حاليا في العلوم التجريبية في التعبير: "خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا"، والتعبير: "فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ"، وهل يدخل هذا الخبر في قضية الإعجاز العلمي؛ أقول مستعينًا بالعلي الكبير وحده تعالى علاَّم الغيوب:**

**لم تمتد الدراسات الحديثة في علم الآثار القديمة Archaeology في عمق التاريخ إلى حقيقة حالة الجماعات الإنسانية الأولى بيقين بعد، وأبعد ما تحقق منه علم المصريات Egyptology لا يزيد عن حوالي خمسة آلاف سنة عندما أسس الملك نارمر الأسرة المصرية الأولى وفق لوحته المكتشفة عام ١٨٩٨، ويظهر فيها نارمر حاملاً شعاري مصر العليا (الصعيد) ومصر السفلى (الدلتا)، أما علم الإنسان القديم Anthropology فما زال في طور الافتراضات؛ وليس أمامه القليل حتى يصل إلى يقين، والمعلوم أن الفرعون رمسيس الثاني؛ الذي حكم من عام ١٢٧٩ ق.م. حتى ١٢١٣ ق.م.، كان طوله وفق قياس المومياء المحفوظة في المتحف المصري حوالي ١٧٠ سم، ولكن عهده قريب قياسًا على تاريخ الإنسان الذي يبدو أنه ضارب بعيدًا في القدم، فلا يستقيم إذن لمحقق أن يستند لافتراض لم يتحقق بعد بيقين؛ أن طول الإنسان ظل منذ نشأة نوعه بلا تغيير.**

**لوحة نارمر Narmer Palette**

**والأصل في قضية الإعجاز العلمي مطابقة حقيقة علمية لم تكن معلومة زمن النبوة الخاتمة لدلالة نصية أو محتملة وفق قواعد اللغة العربية وأصول الاستنباط من غير تكلُّف؛ فضلاً عن الأسلوب الفريد للقرآن الكريم في التعبير كالتمثيل،**

والمتفق عليه عند المحققين أنه لا يُستند في العقائد إلا إلى يقيني الثبوت يقيني الدلالة؛ تحصينًا للأمة من الوقوع في الانحراف بالعقيدة وبليَّة سوء التأويل، وقبول الأوهام والأكاذيب بدافع العصبية الطائفية؛ ورفعها إلى مقام القدسية، وبالمثل في مجال التَحَدِّي بأنباء الغيب في الروايات لا يُستند إلا لِمَا شهد له الواقع وطابق الحقيقة؛ وكان موثوق السند، والرواية اليقينية الثبوت التي لم يقم عليها دليل بعد؛ أو فيها استشكال، فهي من المتشابه الذي يقتضي التفويض لعلام الغُيوب؛ بلا تكييف ولا طعن وإنكار؛ فقد تُفَسِّرها الأيام على وجه لم يكن في الحسبان، أو تستدعي تأويلها على وجه يُطابق الحقيقة.

وفارق بين التحقيق النزيه والسعي إلى التشكيك، والإشكال في رواية أبي هريرة طائفي في الأساس أكثر منه علميا، فكما يقول كاشف الغطاء (ص٧٩): "أنهم لا يعتبرون من السنة إلا ما صح لهم من طرق أهل البيت..، أما ما يرويه مثل أبي هريرة وسمرة بن جندب ومروان ابن الحكم.. وعمرو بن العاص ونظائرهم؛ فليس عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة"، فإذا تجنبنا بلية العصبية الطائفية واكتفينا بالتحقيق النزيه؛ تجد من علماء السنة من نَقَدَ المتن بغير عصبية خدمةً للحقيقة، فوَرَدَ مثلاً في كتاب التنكيل في تأنيب الكوثري للشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ج٤ص٧): "جاء في الحديث أن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً، فما زال الخلق.. يتناقص حتى صاروا إلى ما هم عليه الآن، استشكله ابن خلدون، ونقل أشكاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري بأن ديار ثمود في الحجر لا تزيد أبوابها عن أبواب ديارنا، وهم من القدم على ما يظهر أن يكونوا في نصف الطريق بيننا وبين آدم؛ فكان على هذا يجب أن تطول أبدانهم عنا بنحو ثلاثين ذراعاً، ولعل أهل الحفريات عثروا على عظام وجماجم قديمة جداً ولا يزيد طولها عن طول الناس اليوم، سمعت حل الإشكال من الشيخ عبيد الله السندي رحمه الله أن الطول المذكور في عالم المثال لا في عالم الأجسام"، وعقَّب عليه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في التحقيق بقوله: "قلت هذا التأويل أشبه بتأويلات المتكلمين والمتصوفة، وأني متعجب جداً من حكاية فضيلة الشيخ إياه وإقراره له، واستشكال ابن خلدون إنما يصح على ما استظهره أن ثمود في نصف الطريق بيننا وبين آدم، وهذا رجم بالغيب، إذ لم يأت به نص عن المعصوم، ولا ثبت مثله حتى الآن من الآثار المكتشفة، بل لعلها قد دلت على خلاف ما استظهره، فيبقى الحديث من الأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها دون أي استشكال"، هذا مع أن الشيخ الألباني قد وصف الشيخ المعلمي في الكلمة التعريفية لكتاب (الأدب المفرد) قائلا: "هذا كلام جيد متين من رجل خبير بهذا العلم الشريف يعرف قدر كتب السنة وفضلها، وتأثيرها في توحيد الأمة"، أما قول ابن حجر فهو: "لم يظهر لي إلى الآن ما يزيل هذا الإشكال"، والحديث إذن متعلق بأمور غيبية لم يقطع العلم التجريبي اليوم فيها برأي، والأسلم إذن هو التفويض جمعًا للكلمة والتزامًا بالمنهج العلمي في التحقيق، والله تعالى أعلم.

هذا ما حضرني، وأشكركم للتنبيه لمواضع تستدعي مزيدًا من الاهتمام؛ بلا مصادرة لرأي الآخرين وإنما بحثا عن الحقيقة بتجرد وطلبًا لرضا رب العالمين، أنعم الله تعالى عليكم برضاه والجنة ووالديكم؛ وبنيكم وذويكم.. وكل من تحبون، تلك كانت دعوتي لشخصكم الكريم بجوار الكعبة المشرفة، وتفضلوا بقبول بالغ التقدير ووافر الاحترام وخالص الدعوات.